قناة لوغوس بالولايات المتَّحدة الأمريكيَّة
إيبارشيَّة لوس أنجلوس
نوفمبر ٢٠١٥م
الرَّاهب القس أثناسيوس المقاري

تأصيل الأسرار الكنسيَّة

المحتويات

مقدِّمة عن: الرِّباط القوي بين أسرار الكنيسة وأسرار اللاَّهوت ١
تأثير اللاَّهوت الغربي على لاهوت الأسرار الكنسيَّة في الشَّرق المسيحي ٢
(١) مفهوم السِّر الكنسي ٢
(٢) تكميل السِّر الكنسي وعلاقته بشخص الكاهن الذي يخدم السِّر ٤
(٣) عدد الأسرار الكنسيَّة ٦
بين الصَّلوات السَّرائريَّة والصَّلوات التَّقديسيَّة! ٧
(٤) هل تأسَّست الأسرار بواسطة السيِّد المسيح نفسه؟ ٨

مقدِّمة عن: الرِّباط القوي بين أسرار الكنيسة وأسرار اللاَّهوت

• إنَّنا لا نستطيع أن نفصل أسرار الكنيسة عن أسرار اللاَّهوت، أي الجسد عن الرأس، لأنَّ المسيح هو رأس الكنيسة[١] والكنيسة هي جسد المسيح[٢]، ورسول الكنيسة هو مجد المسيح[٣]. فسرُّ المعموديَّة يعلن سرَّ موت المسيح وقيامته، بل ويحقِّقه. فهل يستطيع من لا يجوز الموت والقيامة مع المسيح في المعموديَّة أن يقول: ''المسيح قام؟''. وسرُّ التَّجسُّد بكلِّ تدبير الخلاص فيه، كامنٌ في سرِّ الإفخارستيَّا ومحقَّق فيه. فسرُّ التَّجسُّد هو عينه سرُّ التَّقوى[٤]، وسرُّ الإفخارستيَّا هو عينه سرُّ التَّقوى كقول القُدَّاس الإلهي: ''ووضع لنا هذا السِّرَّ العظيم الذي للتَّقوى''. فبدون الإفخارستيَّا تصبح قضيَّة تجسُّد ابن الله، قضيَّة لاهوتيَّة بحتة، بعيدة عن كونها سبب حياة تقويَّة للذين يؤمنون بالمسيح. وأيضاً سرُّ الميرون المقدَّس في الكنيسة، هو سرُّ الرُّوح القُدُس فيها.

أي أنَّ الكنيسة هي التي تُعلن سرَّ الثَّالوث، وسرَّ المسيح. وخارجاً عنها، هي دراسات لاهوتيَّة أكاديميَّة، تهب شهادات الدُّكتوراه، ولكنَّها لا تهب الحياة، لأنَّها إن تكلَّمَتْ عن الأسرار، تجعل منها واجبات دينيَّة، تُتمَّم كعُرف كنسي، حتى وإن زيَّنَتها ببريق ألفاظ محبوكة المعنى.

فيشرح القدِّيس بولس الرَّسول كيف أنَّ الكنيسة هي واسطة التَّعرُّف على سرِّ الثَّالوث، فيقول: «... لي أنا أصغر جميع القدِّيسين أُعطيَت هذه النِّعمة، أن أبشِّر بين الأُمم بغنى المسيح الذي لا يُستقصى، وأُنيرَ الجميع في ما هو شركة السِّرِّ المكتوم منذ الدُّهور في الله خالق الجميع بيسوعَ المسيح، لكي يُعرَّف الآن عند الرُّؤَساء والسَّلاطين في السَّماويَّات بواسطة الكنيسة بحكمة الله المتنوِّعة حسب قصد الدُّهور الذي صَنَعهُ في المسيح يسوع ربِّنا ...» (أفسس ٣:٨-١١).

١- أفسس ٥:٢٣
٢- كولوسي ١:٢٤
٣- ٢كورنثوس ٨:٢٣
٤- ١تيموثاوس ٣:١٦

• إذاً، إنْ كان سرُّ الكنيسة هو سرُّ المسيح نفسه – لأنَّ الكنيسة هي جسد المسيح كقول الرَّسول – وإن كنَّا لا نستطيع أن نستقصي ''سرَّ المسيح'' ونستنفذ كلَّ أعماقه، فهكذا أيضاً سرّ الكنيسة. ومع ذلك فعندما يستأمن الله قدِّيسيه وأنبياءه ليعرِّفهم ويُعلن لهم أسراره، يظلّ هذا الإعلان إعلاناً قلبيًّا داخليًّا يحسُّه القلب، وبالكاد يستوعبه العقل استيعاباً جزئيًّا غير كُلِّي.

• لقد ظلَّت أسرار الكنيسة وأسرار اللاَّهوت في حياة الكنيسة الأولى ملتحمة بليتورجيَّتها، ومختَبرة في الكنيسة بحياة عابدة ملؤها الإيمان والتَّقوى، يتذوَّقها الإنسان شاهداً ما أطيبها، فيؤمن بها بدون تحديد مدرسي لمفهومها، أو تعريف وتصنيف لها، ومتى يبطل فعلها؟ ومتى يسري مفعولها؟ وعددها وشروط منحها ... الخ.

فهل يمكنك أن تصف في كلمات طعم التُّفَّاح مثلاً؟ أو تعبِّر عن رائحة الأزهار الجميلة بتعبيرات كلاميَّة؟ فهكذا أسرار الكنيسة إذا لم يختبرها القلب، تظل معرفتها العقليَّة جدباء لا تجدي نفعاً.

• إذاً، الإيمان بأسرار اللاَّهوت، هو نفسه إيمانٌ بالكنيسة ومن داخل الحياة فيها. هو إيمانٌ تغذِّيه الأسرار الكنسيَّة، التي هي نبعُ القوَّة فيها، ومضمون أسرار اللاَّهوت وتحقيقه.

وبذلك نستعيد تراث الكنيسة الشَّرقيَّة الأصيل، وهو التُّراث الذي لا يعالج أو يشرح الأسرار بطريقة منهجيَّة مدرسيَّة قانونيَّة – كما يفعل اللاَّهوت الغربي المدرسي – سوى في جانب بسيط منه، بل يفسح المجال بكليَّته، لشرح الأسرار من داخل اللِّيتورجيَّا، وحياة الكنيسة وصلواتها، وعبادتها، رابطاً بين السِّرِّ الكنسي والحياة التَّقوية لمتقبِّليه، فيأتي السِّرّ غايته، كحياة معاشه ومختَبرة.

تأثير اللاَّهوت الغربي على لاهوت الأسرار الكنسيَّة في الشَّرق المسيحي

أقتصرُ في الحديث عن هذه الجزئيَّة، في أربع نقاط هي:
(١) مفهوم السِّر الكنسي.
(٢) تكميل السِّر الكنسي وعلاقته بشخص الكاهن الذي يخدم السِّر.
(٣) عدد الأسرار الكنسيَّة.
بين الصَّلوات السَّرائريَّة والصَّلوات التَّقديسيَّة!
(٤) هل تأسَّست الأسرار بواسطة السيِّد المسيح نفسه؟

(١) مفهوم السِّر الكنسي

• الكلمة اللاَّتينيَّة المرادفة لكلمة ''سر'' في اللُّغة العربيَّة، هي Sacramentum ومنها جاءت في الإنجليزيَّة Sacrament أو mystery وهي في اليونانيَّة μυστήριον (ميستيريون). والكلمة اللاَّتينيَّة في أصلها اللُّغوي كانت تعني ''القَسَم''، أو ''الحلف'' خصوصاً القَسَم العسكري، وهو ''قَسَم الولاء''. وانتشرت آثار هذا المعنى، وعاشت في أدب الكنيسة المبكِّر، كما عند العلاَّمة ترتليان (١٦٠_٢٢٥م) مثلاً[٥].

ولقد استُخدمت الكلمة في اللاَّهوت المسيحي في مجال متَّسع رحب. فالقدِّيس أغسطينوس (٣٥٤-٤٣٠م) يُعرِّف السِّرَّ بأنه ''شكلٌ منظورٌ لنعمة غير منظورة'' أو ''علامةٌ لشيء مقدَّس''، مطبِّقاً ذلك حتى على صيغ الصَّلوات الكنسيَّة، مثل قانون الإيمان، والصَّلاة الرَّبيَّة. واستمر هذا التَّطبيق المتَّسع حتى العُصور الوُسطى. وينبغي أن نلاحظ هنا، أنه برغم التعريف الضعيف لمعنى السِّر الكنسي عند القدِّيس أغسطينوس، إلاَّ أنه يطبق مفهوم السِّر على صيغ الصَّلوات الكنسيَّة أيضاً. وهذه نقطة جوهرية، سنعود إليها لاحقاً لشرحها.

5- *Ad. Martyres*, 3.

• ولقد ظهر في اللاَّهوت الغربي الكاثوليكي، ومنذ سنة ١٢٣٥م، تمييزٌ بين المادة والشَّكل The matter and the form في الأسرار الكنسيَّة. فالمادة هي العنصر الذي يجري عليه السِّر، كالماء للمعموديَّة والخُبز للإفخارستيَّا ... الخ، أمَّا الشَّكل فهو كلمات التَّقديس التي بواسطتها يتم تقديس السِّر. ولقد دخل العُلماء في مباحثات ومناقشات عقلانيَّة طويلة. وصارت صحَّة المادة وصحَّة الشَّكل، هي التي تحدِّد قانونيَّة السِّر وصلاحيَّته.

وفي اللاَّهوت الغربي أيضاً، لا تعتمد قانونيَّة السِّرِّ على استحقاق أو عدم استحقاق المتمِّم للسِّر. وأنَّ غياب الإيمان والتَّوبة ربما يضع عائقاً في طريق النِّعمة التي تفيض طبيعيًّا من الأسرار، وفي مثل هذه الحالات فإنَّ الفعل السَّرائري برغم قانونيَّته وصلاحيَّته، إلاَّ أنَّه يصبح عديم التَّأثير ... الخ[٦].

ولقد ضمَّنت الكنيسة الكاثوليكيَّة كلَّ إيمانها وعقيدتها فيما يختص بالأسرار الكنسيَّة، ورُتب الإكليروس فيها، وكافة الصَّلوات، وأوجه العبادة فيها، وشرح قانون الإيمان، والصَّلاة الربيَّة، والتَّعليم عن أسرار الثَّالوث، والتَّجسد، والفداء، والمجيء الثَّاني، والحياة الأبديَّة، والرُّوح القُدُس وعمله في الكنيسة والمؤمنين، والوصايا العشر ... الخ، ضمَّنت كلَّ ذلك في كتاب ''التَّعليم المسيحي'' وهو المعروف باسم Catechism ''كاتيشزم''[٧]. ولقد نقلت الكنائس الشَّرقيَّة والغربيَّة على السَّواء من هذا الكتاب، بعد أن ترجمته وشرحته دونما تمعُّن، فكانت النَّتيجة لاهوت غربي اقتحم الكنيسة الشَّرقيَّة، واختلط بلاهوتها الأصيل وليتنه.

ويُعرِّف ''الكاتيشزم'' الغربي السِّرَّ الكنسي بأنَّه ''علامةٌ خارجيَّةٌ منظورةٌ، تهبنا نعمة داخليَّة روحيَّة ...''. وهو تكرارٌ لتعريف القدِّيس أغسطينوس للسِّر، أنَّه ''شكلٌ منظورٌ لنعمة غير منظورة''. فبات مفهوم السِّر الكنسي بهذا الإيجاز المخل، ضعيفاً.

اللاَّهوت الغربي هو لاهوت مدرسي المنهج، يُخضع كلَّ شيء للتَّقسيم والتَّبويب والفحص والتَّحليل والاستنتاج. فلمَّا طال هذا اللاهوت أسرار الكنيسة وصلواتها اللِّيتورجيَّة، تورَّط في شرح السَّمائيَّات بمنهج الأرضيَّات، وأخضع السِّر لمنطق العقل، فغاص في متاهات لا قرار لها، لأنه حاد حيناً عن التَّعليم الآبائي، الذي لا يفصل بين اللاَّهوت والعبادة والخلاص، والذي يعطي الإيمان دوره اللائق به في حياة الكنيسة. لا نُنكر أنه يمكن للذِّهن المستنير بالنِّعمة، أن يفحص أسرار الكنيسة وعقيدتها، ولكن إلى حدود يتعذَّر عليه تخطِّيها، ومن ثمَّ وعند هذا الحد، لابد أن يفسح مجالاً للإيمان، ليوقن بقلبه الدَّاخلي بما لا يمكن لذهنه أن يستوعبه. وإلاَّ فكيف تظل أسرار الكنيسة وعقائدها أسراراً، متى تمَّ إخضاعها للعقل والمنطق والتَّحليل؟

• إنَّ كتابات الآباء في الكنيسة الأولى، تشرح وتفسِّر الأسرار من داخل الاحتفال اللِّيتورجي الفِّعلي بها، كون اللِّيتورجيَّا هي حياة الكنيسة وإيمانها. فالسِّرُّ الكنسي ملتحم باللِّيتورجيَّا، ولا يكمل بدونها. فالشَّركة في الحياة اللِّيتورجيَّة في الكنيسة هي

6- F.L. Cross & E.A. Livingstone, *The Oxford Dictionary of The Christian Church* (*ODCC*), 2nd edition, 1988, p. 1218.

٧- بُدء في تدوينه في منتصف القرن السَّادس عشر في شكل أسئلة وأجوبة تُلقَّن لكلِّ إنسان ينتمي إلى الكنيسة الكاثوليكيَّة قبل منحه سرّ الميرون بواسطة الأُسقُف (*ODCC*, p. 249.) واستمرَّت الإضافات والتَّعديلات عليه عبر السِّنين حتى سنة ١٩٨٥م عندما ظهرت طبعة جديدة له. وفي سنة ١٩٨٦م تشكَّلت لجنة من الإكليروس واللاَّهوتيِّين لوضع كتاب ''التَّعليم المسيحي - الكاتيشزم'' في ثوب جديد، حيث ظهر في سنة ١٩٩٣م، يحوي تجديداً أو تأصيلاً لبعض النَّظريَّات اللاَّهوتيَّة في الكنيسة الكاثوليكيَّة بما يتَّفق مع آباء الكنيسة الأوائل، ممَّا أظهر بادرة تقارُب بين الكنيسة الكاثوليكيَّة والكنيسة الأرثوذكسيَّة في كثير من المبادئ التي كان مختلَفاً عليها فيما سبق، وذلك بعد أن استبعد الكاتيشزم الجديد مبادئ القدِّيس أغسطينوس التي لم تعُد تُناسب العصر، على حد قول الكنيسة الكاثوليكيَّة، وكذلك الفكر اللاَّهوتي الذي روَّج له في الغرب اللاَّهوتي الإنجليزي أنْسلمْ (رئيس أساقفة كانتربري في القرن الحادي عشر)، حيث أخذت الكنيسة الكاثوليكيَّة بآرائه، وتسرَّبت بعض تلك الآراء إلى كتابات بعض المؤلِّفين في الكنيسة الشَّرقيَّة عن أسباب الفداء والخلاص، والتي يحصرها في أسباب قانونيَّة مثل إرضاء الغضب والعدل الإلهيَّين، وتلوُّث الإنسان بخطيئة آدم الأصليَّة ... الخ. حيث اعترف الكاتيشزم الجديد بالأُسُس الإيمانيَّة الرَّئيسيَّة التي يعترف بها الأرثوذكس الشَّرقيُّون، وأعطى الأهميَّة الأولى لآباء الكنيسة الذين كتبوا باليونانيَّة مثلما فعل مع الذين كتبوا باللاَّتينيَّة، وكذلك التَّقليد المستيكي الأصيل الذي يشترك فيه الشَّرق والغرب، محاولاً أن يتجنَّب منهج بلاجيوس، ذلك الرَّاهب البريطاني المولد، الذي ترهَّب في أواخر القرن الرَّابع الميلادي، وعاش في روما، وكان يؤكِّد على الجهاد البشري دون مساندة النِّعمة في سبيل خلاص الإنسان، ولقد انشغل القدِّيس أغسطينوس بالصِّراع معه. بينما يؤكِّد الفكر الأرثوذكسي بشدَّة على دور النِّعمة واشتراكها مع إرادة الإنسان في تكميل خلاصه، حيث تُصبح الفضيلة عملاً إلهيًّا بشريًّا مشترَكاً.

الضَّمان الوحيد لتفسير السِّرِّ تفسيراً اختباريًّا حياتيًّا معاشاً، وهو ما لم يفعله اللاَّهوت الغربي الذي عزل السِّرَّ عن اللِّيتورجيَّا، وجعله أداة نعمة قائمة بذاتها، فأفقد اللِّيتورجيَّا وظيفتها، والتي هي استعلان السِّرّ وغايته. فسرُّ الإنجيل نفسه لا يُستعلَن إلاَّ من داخل الكنيسة ونظام عبادتها وصلواتها، لأنَّ معرفة الإنجيل نفسه إذا لم تؤدِّي إلى حياة كنسيَّة تقويَّة، تظلّ معرفة إنجيليَّة عقليَّة، حتى وإن لبست هذه المعرفة ثوباً من تأمُّلات روحيَّة، أو تفسيرات لاهوتيَّة. فإن كنتَ تحبّ الإنجيل، فليظهر هذا من خـــلال حياة شركة فعليَّة تحياها في الكنيسة المقدَّسة بأسرارها وليتورجيَّتها.

وإنَّ كلَّ شرح وتفسير لأيِّ سرٍّ كنسي، لا يُفضي في النِّهاية إلى الإفخارستيَّا ويصب فيها، هو شرح عقلاني غريبٌ عن اللاَّهوت الشَّرقي، حتى لو اكتسى ثوب البلاغة وإتقان الأسلوب. فأيُّ سرٍّ كنسي في حدِّ ذاته لا يمكن أن يكون نعمة إلهيَّة، إلاَّ إذا اكتمل بالشَّركة في جسد الرَّب ودمه الأقدسَين، وهنا يكمُن قصور المفهوم الأوغسطيني للسِّرِّ.

السِّرُّ الكنسي هو واسطة العلاقة بين الله والإنسان، وفي ذات الوقت مجال تحقيقها الوحيد. فبالسِّرِّ الكنسي ننال حياة الله فينا، وبالسِّرِّ الكنسي يسكب الله فينا كلَّ هباته وعطاياه ومواهبه وأسراره. فهو باب دخولنا إليه، أو بالحري دخوله إلينـــا. وهو الطَّريق الوحيد لسكناه فينا. هذا ما تفعله الكنيسة وتحقِّقه الأسرار فينا.

وهكذا تلتحم الحياة اللِّيتورجيَّة في الكنيسة مع مضمون أسرارها، فتمتزج التَّقوى باللاَّهوت. فاللِّيتورجيَّا تُكمِّل السِّـــرَّ الكنسي، والسِّرُّ الكنسي يُحقِّق اللِّيتورجيَّا، فتصبح العبادة هي مصدر العقيدة.

• إنَّ تحوُّل السِّرّ الكنسي في اللاَّهوت ما بعد الآبائي، يتمثَّل في عزلته داخل كيان سرائري قائم بذاته، وعندما أُعليـــت الأسرار الكنسيَّة ومُجِّدت من حيث هي حقائق سامية، بدأ اللاَّهوت يتغرَّب تدريجياً عن الأسرار الكنسيَّة. إنَّ الخطأ المميت في العقلانيَّة ما بعد الآبائيَّة، كان عزلها للسِّرِّ الكنسي عن اللِّيتورجيَّا، من حيث كون اللِّيتورجيَّا تعبيرٌ كُلِّيٌّ عن حياة الكنيسة وإيمانها. هذا العزل في الواقع قد عزل السِّرَّ الكنسي عن الرَّمز، أي عن تلك الصِّلة وذاك الاتصال بمجمل الحقيقة التي تتحقَّـــق في السِّرِّ الكنسي. وإذ أصبح السِّرُّ الكنسي ''أداة نعمة'' مغلقة، قائمة بذاتها، صار نقطة حقيقيَّة في بحر من الرُّموز، فحُرمت اللِّيتورجيَّا من وظيفتها الخاصة التي هي ربط السِّرِّ الكنسي بمضمونه[٨].

• أسرار الكنيسة من حيث كونها توحِّدنا بالمسيح، وتثبِّتنا فيه، لا تكون رموزاً أو أشكالاً للتَّعبير عن إيمان الكنيسة، أو وسيلة للوصول إلى هذا الإيمان، بل هي تحقيق هذا الإيمان، هي إيَّاه وليس تعبيراً عن معناه. إيمان الكنيسة هو في كماله، اقتناء حياة المسيح وفكره، وبالتَّالي اقتناء حياة الكنيسة. فحياة الكنيسة هي في اقتنائها لحياة المسيح بالأسرار الكنسيَّة، تلك الأسرار التي استودع المسيح فيها كلَّ حياته، لكي تنتقل بدورها إلى الكنيسة، ومنها إلى كلِّ المؤمنين بالمسيح، ليس في كون الأسرار الكنسيَّة كوسيلة لغاية، بل نبع هذه الغاية ودوامها. فالانعزال عن الأسرار الكنسيَّة هو انعزال عن حياة المسيح، فحياتنـــا في المسيح لا تتم بواسطة الأسرار الكنسيَّة، بل من داخلها.

إنَّ عمل الكنيسة، هو أن تنقل إلينا وباستمرار حياة المسيح بالأسرار، فإن توقَّفت ديمومة السِّرِّ تعطَّل في الحـــال عمـــل الكنيسة، وانتفت بالتَّبعيَّة حياة المسيح فينا.

(٢) تكميل السِّر الكنسي وعلاقته بشخص الكاهن الذي يخدم السِّر

• مفهوم عمل الكاهن في تكميل الأسرار، أنَّه ليس هو الذي يتمِّم السِّر بل المسيح نفسه. الكاهن يقوم بتأديـــة السِّـــر، لكن بقوَّة المسيح التي يسبغها على الكاهن. هنا الكاهن خاطئ تائبٌ ينضم إلى الخاطئين التَّـــائبين، طلبـــاً للغفـــران لنفســـه وللآخرين معه. إذا فهو أوَّل التَّائبين، كي ينتقل صفحُ الله وغفرانُه عن طريقه، للآخرين.

٨- ألكسندر شميمان، من أجل حياة العالم، منشورات النُّور، ١٩٩٤م، ص ١٩٠-٢١١ بتصرُّف.

فالكاهن لا يقدر على إتمام خدمته اللِّيتورجيَّة بكهنوته الذَّاتي، بل بكهنوت المسيح الذي يخدمه. لأنه ليس كهنوتاً آخر غير كهنوت المسيح، هذا هو الكاهن إلى الأبد على رُتبة ملكي صادق. والكاهن في كنيسة العهد الجديد يبرهن بذلك على عدم انفصاله عن الجماعة قط، بل ويؤكِّد وحدته معها، لأنَّ المسيح مات من أجل الكنيسة، وليس من أجل نفسه.

ويلزمنا هنا جدًّا أن نتوقَّف لنتساءل؛ إنْ كان المسيح نفسه هو الذي يتمِّم السِّر بواسطة الكاهن، فماذا يعني هنا إن كان الكاهن مستحقًّا لمباشرة السِّر أو غير مستحق؟ أي إنْ كان ذا سيرة صالحة أم لا؟

إنَّ الفصل بين شخص الكاهن، وبين نعمة الكهنوت المعطاة له والمستقلَّة عن طبائع الأشخاص، هي عقلانيَّة لاهوتيَّة غربيَّة. لأنَّ تنوُّع الهبات الإلهيَّة والخِدم في الكنيسة[٩] يدل على أنَّ الموهبة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالشَّخص الذي تُنزل عليه هذه الهبة.

فكما أنَّ الكنيسة محقَّة في عدم ربط حقيقة الأسرار باستحقاق الكهنة الذين رُسموا لخدمتها – وإلاَّ لاستحال إتمام أيٍّ منها – فهي أيضاً محقَّة في ربط تحقيق ملء حياتها بالقدر الذي يتقبَّل به كلُّ عضو من أعضائها المواهب المنحدرة على كلِّ واحد منهم.

الكاهن دُعي ورُسم في الكنيسة التي هي جسد المسيح، ليكون صورة رأس هذا الجسد، أي ليكون صورة للمسيح. ولكي يكون ذاك الذي بواسطته تستمر الخدمة الشَّخصيَّة للمسيح.

إنَّ دعوة الكهنوت تتوجَّه إلى صميم الشَّخص المدعو ولا يمكن أن تنفصل عنه. فمن الخطأ فصل الكهنوت عن الشَّخص، وكأنَّ الكهنوت رسالة أو خدمة مغلقة جامدة قائمة بذاتها، لا علاقة لها لا من قريب أو بعيد بالشَّخص الذي سيتمِّمها. إنَّ أيَّ تمييز قاطع كهذا، هو تمييزٌ خاطئ، لأنه يشوِّه طبيعة الكهنوت نفسها، كاستمرار لكهنوت المسيح في الكنيسة.

صحيحٌ أنَّ شخص الكاهن لا يؤثِّر على عمل الأسرار وفاعليَّتها. ولسنا نربط إتمام الأسرار بمزاياه الشَّخصيَّة. فالكنيسة لا تنكر حقيقة الأسرار التي تجري على يدي أيِّ كاهن، سواء كان صالحاً أو سيئاً. ولكنَّها في الوقت عينه، تعلم حق العلم، الدَّرجة الكبيرة التي تعتمد فيها الحياة الكنسيَّة على استحقاق أو عدم استحقاق من أوكلوا وأودِعوا تدبير الأسرار الإلهيَّة[١٠].

وبرغم كلِّ ذلك، فتظل الكنيسة قائمة، لأنَّ قداسة الكنيسة ليست نابعة منَّا، إنما قداسة المسيح الذي أحب الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها، لكي يحضرها لنفسه كنيسة مجيدة لا دنس فيها، ولا عيب[١١].

• وحين بدأ الطُّغيان الإكليريكي التَّدريجي في الكنيسة منذ القرون المبكِّرة، وهو ما تشهد عليه قوانين مجمع ترولو سنة ٦٩٢م، اتسعت الهوَّة التي تفصل بين رجال الإكليروس والعلمانيِّين. فكان من الطَّبيعي والحالة هذه، أن يتغيَّر جو الكنيسة بُرمَّته. ففي نهاية القرن الرَّابع، كَتَبَ القدِّيس يوحنَّا ذهبي الفم يقول[١٢]:

> [ثمَّة حالات لا يتميَّز فيها الكاهن بشيء عن الخاضعين له، وكذا الحال عند تناول الأسرار المقدَّسة الرَّهيبة. فنحن جميعاً مستحقُّون بالقدر نفسه. لقد تغيَّرت الحال عمَّا كانت عليه في العهد القديم، عندما كان للكهنة طعام، وللشَّعب آخر. وعندما لم يكن يُسمح للشَّعب بمشاطرة الكهنة طعامهم. اليَوم، الحال مختلفة. اليَوم، الجسد ذاته والكأس ذاتها ممنوحان للجميع ... اليَوم، كلُّنا نصافح بعضُنا بعضاً ...][١٣].

٩– انظر ١كورنثوس ١٢:٢٩–٣٠
١٠– الأب ألكسندر شميمان، مرجع سابق، ص ١٧١–١٧٣
١١– انظر: أفسس ٥:٢٥–٢٧
١٢– الأب ألكسندر شميمان، مرجع سابق، ص ٣٣٨، ٣٣٩
١٣– العظة رقم ١٨ إلى الكورنثيين (PG 61, 527)

يقول البابا أثناسيوس الثَّاني (٤٨٩-٤٩٦م) الـ ٢٨ والمعروف باسم ''أثناسيوس الصَّغير''، يقول في قوانينه: ''اختير الكهنة ليكونوا أطهاراً أكثر من كلِّ الشَّعب، لأنهم يصلُّون عن الشَّعب، ويطلبون إلى الرَّب الصَّفح عن خطاياهم. فإن أخطأ الكاهن مثل الشَّعب فمن الذي يُصلِّي عنهم، لأنَّ شعباً كهنته أنجاس، ليس لهم صلاة تصعد إلى الله''.

ويقول البابا غُبريال الخامس (١٤٠٩-١٤٢٧م) الـ ٨٨: ''إذا لم يكن الكاهن قلبه وخاطره طيِّبٌ على شعبه، والشَّعب خاطره طيِّبٌ عليه، فلا يتقبَّل الله منه طلبته في شعبه. ولا يتقبَّل الله طلباتهم فيه. وكفانا الله من ذلك''[١٤]

(٣) عدد الأسرار الكنسيَّة

لم تعرف الكنيسة الجامعة شرقاً وغرباً، تحديداً لعدد أسرار الكنيسة، على مدى أحد عشر قرناً من تاريخها. أمَّا أوَّل تحديد لعدد الأسرار الكنسيَّة، فكان في غضون القرن الثَّاني عشر الميلادي، حين عدَّ (القدِّيس) فيكتور St. Victor (+١١٤٢م)، الأسرار إلى حوالي ثلاثين سرًّا، مقسِّماً إيَّاها إلى ثلاث مجموعات. أمَّا بطرس لمبارد Peter Lombard أُسقُف باريس (١١٠٠-١١٦٠م) فقد جعلها سبعة أسرار فقط. ولقد قنَّن مجمع فلورنسا سنة ١٤٣٩م أنَّ الأسرار الكنسيَّة هي سبعة فقط. ثمَّ جاء مجمع ترنت Trent[١٥] (١٥٤٥-١٥٦٣م) الذي عُقد في إيطاليا، ليقول في أحد قوانينه: ''إن قال أحدٌ أنَّ يسوع لم يؤسِّس جميع أسرار الشَّريعة الجديدة، وأنَّ هناك أكثر أو أقل من سبعة أسرار، وأنَّ أحد هذه السَّبعة ليس سراً بالمعنى الحصري فليكن محروماً''. فأصبح الرَّقم سبعة للأسرار الكنسيَّة تقليداً ثابتاً في الغرب. أمَّا أن ينتقل هذا التَّقليد الغربي إلى الشَّرق المسيحي، فهذا هو الشَّيء الغريب.

ذلك لأنَّ تقليد الكنيسة الشَّرقيَّة، خلال الخمسة عشر قرناً الأولى من تاريخ المسيحيَّة في الشَّرق، لا يعرف هذا التحديد. فإن عُدنا إلى القرن الرَّابع عشر في الكنيسة القبطيَّة، وعند العالم الطَّقسي شمس الرئاسة ابن كَبَر (+١٣٢٤م)، وهو قس كنيسة العذراء المعلَّقة، المقر البطريركي آنئذ، لا نجد أيَّ تفريق عنده بين صلوات الأسرار التي نعرفها اليَوم، وباقي الصَّلوات الكنسيَّة الأُخرى. فهو مثلاً لا يفرِّق بين صلوات تكريس الكهنة (أي سرّ الكهنوت)، وصلوات تكريس الكنائس.

ففي الباب السَّادس عشر من مؤلَّفه: ''مصباح الظُّلمة وإيضاح الخدمة'' نقرأ: ''والصَّلوات المختصَّة بالكهنة هي مُرتَّبة في البيعة، ولا تجوز بغير كاهن، صلاة التَّعميد، صلاة تقديس القُربان، وصلاة تكريس الكهنة والبيَع، وصلاة الزَّواج، والتَّحليل، وصلاة أشفية المرضى وهي صلاة الزَّيت، وصلاة الأموات حال انتقالهم وبعدها، وأبكار المآكل، وصلاتا الغطاس والقصريَّة مستنبَطة من القُدَّاس''.

ففي القائمة السَّابقة يذكر ابن كَبَر أسرار: المعموديَّة، والميرون، والقُربان المقدَّس، والكهنوت، والزِّيجة، والتَّوبة والاعتراف الذي يدعوه ''التَّحليل''، ومسحة المرضى. إلى جانب صلوات تكريس الكنائس، والصَّلاة على المنتقلين، وتذكارات المنتقلين، وصلاة تبريك باكورات الثِّمار، وصلاة اللقَّان في عيد الغطاس، وصلاة القصريَّة أي قُدَّاس الماء في خميس العهد. وكلُّها يدعوها ''الصَّلوات المختصَّة بالكهنة''. وجدير بالذِّكر أنه لم يُشر إلى لقَّان عيد الرُّسل الذي لم يكن حتى ذلك الوقت قد انتشر في الكنيسة القبطيَّة، إذ بدأ استخدامه فيها منذ القرن الثَّالث عشر.

لقد دارت المحاولات في القرون المتأخِّرة، لتصب كلُّها في مسار واحد، هو التَّركيز على الرَّقم سبعة ومضاعفاته. فكانت

١٤- الأنبا غُبريال الخامس، حقَّقه ونشره الأب ألفونس عبد الله الفرنسيسكاني، ضمن مطبوعات المركز الفرنسيسكاني للدِّراسات المسيحيَّة الشرقيَّة، سلسلة دراسات شرقيَّة مسيحيَّة، القاهرة ١٩٦٤م، ص ٦١

١٥- ويعرف أيضاً باسم ''المجمع التريدنتيني'' من الكلمة اللاَّتينيَّة Tridentinum. وقد عُقد هذا المجمع في مدينة ترنت (ترانتو) شمال إيطاليا. وتعتبره الكنيسة الكاثوليكيَّة المجمع المسكوني التَّاسع عشر لها. وكان هدف المجمع هو السَّعي لمحاولة تلاقي أهل الجنوب مع أهل الشَّمال، ولكن أهل الشَّمال لم يحضروا، إذ بدأ المجمع جلساته ولم يحضر فيه سوى ٣٤ عضواً من ٥٠٠ أسقف كاثوليكي في العالم. وتوقَّف المجمع ثلاث مرَّات ثم عاد واستأنف أعماله، واستمر معقوداً في عهود الباباوات بولس الثَّالث (١٥٣٤-١٥٤٩م)، ويوليوس الثَّالث (١٥٥٠-١٥٥٥م)، وبولس الرَّابع (١٥٥٥-١٥٥٩م)، وبيوس الرَّابع (١٥٥٩-١٥٦٥م). وكان لقراراته تأثيرٌ كبيرٌ على الكنيسة الكاثوليكيَّة.

رُتب الكنيسة في المصادر الطَّقسيَّة القبطيَّة القديمة، حتى ما قبل القرن العاشر الميلادي تقريباً، هي خمس رُتب، هي: الأُسقُف والقس والشمَّاس والإيبودياكون والأغنسطس[١٦]. ثمَّ صارت تسع رُتب كنسيَّة منذ القرن العاشر وحتى القرن الثَّالث عشر الميلادي، وذلك بشهادة مصادر طقسيَّة قبطيَّة قديمة، وأيضاً بشهادة الممارسة الطَّقسيَّة في صلوات رفع البُخور، في ذلك الوقت، إلاَّ أنَّ هذه الرُّتَب الكنسيَّة التِّسع لم تخرج عن الرُّتَب الخمس الكنسيَّة القديمة، حيث صار تقسيم رُتبة الأُسقُف إلى ثلاث رتب هي: البطريرك والمطران والأُسقُف. وتقسيم رُتبة القس إلى: القُمُّص والقس. وتقسيم رُتبة الشَّماس إلى: رئيس الشَّمامسة والشمَّاس الدِّياكون. وفي النِّهاية تأتي رتبتي الإيبودياكون والأغنسطس[١٧].

وكان أوَّل ذكر يرد عن رُتبة الإبصالتيس أي المرتل، ما ورد في قوانين البابا أثناسيوس الثَّاني (٤٨٩-٤٩٦م) وهو القانون (٤:١٠)، إلى جانب ذكرها لرُتبة البوَّاب. وأيضاً القوانين الكنسيَّة المصريَّة المنسوبة للقدِّيس باسيليوس الكبير. ولعلَّ قوانين البابا أثناسيوس الثَّاني بطريرك الإسكندريَّة، والقوانين الكنسيَّة المنسوبة للقدِّيس باسيليوس الكبير، قد نقلت من قوانين مجمع اللاذقيَّة (٣٤١-٣٨١م) ما يختص بهاتين الرُّتبتَين، ضمن الرُّتَب الكنسيَّة فيها. أو نقلت من مصدر كنسي آخر، لأنَّ التَّقليد السِّرياني القديم، وتقليد كنيسة روما، يعرفان رُتبتي المرتِّل والبوَّاب، كرُتب كنسيَّة مستقلَّة، أي رُتب كنسيَّة قائمة بذاتها.

وهكذا، زحف الرَّقَم سبعة أو مضاعفاته على كلِّ شيء في الكنيسة، سواء في عدد طغماتها، أو عدد أواني الخدمة المستخدمة في الهيكل المقدَّس[١٨]، أو عدد قطع ملابس الخدمة الكهنوتيَّة للأُسقُف[١٩]، أو عدد الأعياد الكنسيَّة التي انحصرت فقط في ضِعف العدد سبعة، فخرجت بعض الأعياد الكنسيَّة من الحصر، أو عدد الدَّورات الاحتفاليَّة في الكنيسة والتي انحصرت في الرَّقَم سبعة بالتَّحديد. كما أنَّ الشُّموع الموقدة حول الزَّيت في ليلة سبت الفرح هي سبعة شموع وسبعة قناديل ... الخ! حتى طال الرَّقَم سبعة، عدد أسرار الكنيسة في القرن الخامس عشر، فحجَّمها إلى سبعة أسرار.

وبسبب حصر الأسرار الكنسيَّة في الرَّقَم سبعة، ونظراً لوجود صلوات كنسيَّة أُخرى في غاية الأهميَّة لخلاص الإنسان، مثل الصَّلاة على الرَّاقدين، وغيرها، فقد ظهر في الغرب تفريق بين أسرار الكنيسة، والتي دُعيت باسم الصَّلوات السَّرائريَّة، وصلوات أُخرى مهمة، دعوها باسم الصَّلوات التَّقديسيَّة. وهذا التَّقسيم الغربي انتقل إلى الكنيسة البيزنطيَّة في الشَّرق، ومن ثمَّ تسرب إلى الكنائس الشَّرقيَّة الأُخرى، ومن بينها الكنيسة القبطيَّة طبعاً. وهذا يدفعنا إلى شرح هذه الجزئيَّة بتوضيح أكثر.

بين الصَّلوات السَّرائريَّة والصَّلوات التَّقديسيَّة!

كان من أبرز تحديدات مجمع ترنت Trent (١٥٤٥-١٥٦٣م) الذي عُقد في إيطاليا، أنه ثبَّت ما استقر في اللاَّهوت المدرسي

١٦- وهو ما نجده في كتاب التَّقليد الرَّسولي لهيبوليتس، والذي عُرف في مصر باسم "التَّرتيب الكنسي المصري". وهو نفس ما يذكره خولاجي القدِّيس سرابيون المدون سنة ٣٥٠م. ونفس ما تذكره قوانين هيبوليتس القبطيَّة في أواخر القرن الخامس، وأوائل السَّادس الميلادي.

١٧- وهو ما نجده في كتاب "ترتيب الكهنوت" المنسوب للأنبا ساويرس بن المقفَّع (حوالي ٩١٥-١٠٠٠م). وبرغم تكرار الكاتب للرقم تسعة غير مرَّة، إلاَّ أننا نجد محاولته تقليص الرُّتَب الكنسيَّة من تسعة إلى سبعة فقط، فارتبك في الشَّرح.

كما يتكلم ابن سباع في القرن الثَّالث عشر، من كتابه "الجوهرة النَّفيسة في علوم الكنيسة" عن تسع رتب كنسيَّة، ثمَّ يعود ليتكلم مرَّة أُخرى عن سبع رتب فقط. وهذا يريك الوقت الذي بدأ فيه الرَّقَم سبعة يظهر في الكنيسة.

والجدير بالذِّكر هنا أن رُتبة الأُغنسطُس في الكنيسة القبطيَّة في المصادر القديمة، كان منوطاً بها قراءة الفُصول الكتابيَّة، والتَّرتيل أيضاً.

١٨- يذكر كتاب "ترتيب الكهنوت" المنسوب للأنبا ساويرس بن المقفَّع (تنيَّح بعد سنة ٩٨٧م)، وهو كتاب يعود إلى القرون الوُسطى، يذكر أنَّ الأواني المستخدمة في الهيكل، عددها أربعة عشرة. **سبعة** منها يتم تكريسها بالميرون، **وسبعة** لا تُكرَّس. والسَّبعة التي يتم تكريسها هي: **اللَّوح المقدَّس**، وهو مثال القبر. **والصِّينيَّة** مثال المذود. ومن اللَّفائف المكرَّسة **لفافتَين**، واحدة تحت الصِّينيَّة، والأُخرى تحت الكأس، وهي نظير اللَّفائف في الموت والدَّفن، والملفوف بها جسد سيِّدنا في المذود. **والكأس** مكرَّس مثال قسط المن. **والملعقة** مكرَّسة برسم التَّوزيع للنَّاس الرِّجال والنِّساء، لأنهم لا يتناولون من الكأس نظير الكهنة. **والإبروسفارين** مكرَّس نظير الحجر الذي دُحرج عن القبر فوق الجسد المدفون.

وأمَّا السَّبعة غير المكرَّسة، فهي: **المنارة، والكوز، والطَّاسة، والمجمرة، ودُرج البُخور، والحامل الذي يوضع عليه الكأس، والصَّليب.**

وقبة الهيكل مرفوعة على **أربعة عشر عامودا** (لاحظ أنها مضاعفات الرَّقَم سبعة).

الأنبا ساويرس بن المقفَّع، كتاب ترتيب الكهنوت، كتيِّب قديم لليتورجيَّة الكنيسة القبطيَّة، تحقيق يوليوس أسفلج Julius Assfalg، مطبوعات مركز الدِّراسات الشَّرقيَّة لحراسة الأراضي المقدَّسة، القاهرة ١٩٥٥م، ص ١٥

١٩- يوحنَّا بن أبي زكريا بن سباع، الجوهرة ...، ص ١٧٥

الغربي بتقسيم الصَّلوات إلى صلوات سرائريَّة، وأُخرى تقديسيَّة. ويقول بأنَّ الأولى أكثر أهميَّة من الثَّانية!

لقد عقد اللاَّهوت المدرسي الغربي، مقارنة بين الصَّلوات السَّرائريَّة والصَّلوات التَّقديسيَّة، فجعل من الأولى اختصاصها بحياة الإنسان في نواحيها الأساسيَّة، ومن الثَّانية أنها الأكثر اتساعاً من ميدان الأسرار، لتشمل الإنسان والخليقة، أي الكائنات غير العاقلة. وأنَّ الأسرار الكنسيَّة رئيسيَّة وجوهريَّة لخلاص الإنسان، في حين لا تتمتَّع الصَّلوات التَّقديسيَّة بالأهميَّة ذاتها! وأنَّ الأسرار الكنسيَّة تفعل مفعولها من تلقاء ذاتها، بصرف النَّظر عن استحقاق مقتبليها، في حين أن الصَّلاة التَّقديسيَّة تفعل في يؤمن حقًّا بمفعولها. وأنَّ الأسرار الكنسيَّة أسَّسها الرَّب نفسه، أمَّا الصَّلوات التَّقديسيَّة فقد أنشأتها الكنيسة ... الخ!!

ولكن الفكر الشَّرقي لم يكن يعرف هذه التَّقسيمات، ذلك لأنَّ كلَّ صلوات الكنيسة اللِّيتورجيَّة هي بذات الأهميَّة، لأننا لن نستطيع – إن قبلنا بهذا التَّقسيم أصلاً – أن نكتفي مثلاً في حياتنا الكنسيَّة بصلوات الأسرار الكنسيَّة، ولا نولي نفس الأهميَّة لتلك الصَّلوات التي تُدعى تقديسيَّة، مثل صلوات السَّواعي، أي الصَّلاة بالأجبية، أو تسبحة نصف اللَّيل والسَّحَر، أو قُدَّاسات اللقَّانات، أو تكريس الكنائس الجديدة، أو تكريس الأيقونات في الكنائس، أو تكريس المذابح المقدَّسة ... الخ. بل إنَّ الصَّلاة على المنتقلين في الكنيسة قبل مواراتهم الثَّرى، وتذكاراتهم الدَّائمة بعد ذلك، تمثِّل جانباً عقائديًّا مهمًّا في ضمير الكنيسة وحياتها، ولكلِّ عضو من أعضائها.

بالإضافة إلى أنَّ الكلام الذي يقوله اللاَّهوت الغربي، يعترضه لقَّان يوم خميس العهد مثلاً، إذ أنَّ الرَّب الذي انحنى ليغسل أرجل تلاميذه في ليلة آلامه وقبل الصَّليب، قد أسَّس بذلك صلوات قُدَّاس الماء، أو طقس اللقَّان في الكنيسة، ليس فقط بما مارسه هو فعليًّا، بل أيضاً بوصيَّة إلهيَّة، بقوله: «أتفهمون ما قد صنعت بكم؟ فإن كنتُ وأنا السيِّد والمعلِّم قد غسلت أرجلكم، فأنتم يجب عليكم أن يغسل بعضكم أرجل بعض» (يوحنَّا ١٣:١٢، ١٤). وقوله لبطرس الرَّسول: «إن لم أغسلك، فليس لك معي نصيب» (يوحنَّا ١٣:٨).

فالرُّوح القُدُس يُقدِّس ماء اللقَّان تقديساً، يصبح بموجبه ذات قوَّة للتَّطهير والخلاص، بل ونافعاً لكلِّ شيء، وذلك بحسب منطوق الصَّلوات ذاتها. وهو نفس ما يفعله سرّي مسحة المرضي، والتَّوبة والاعتراف أيضاً. بل إنَّ نصوص صلوات اللقَّان نفسها، تنصُّ على تسمية هذا الطَّقس سرًّا، بل وسرًّا مقدَّساً.

إنَّ التَّحديدات التي قنَّنها الغرب وتثبَّتت لديهم بمجامع كنسيَّة عبر قرون متتابعة، قد انتقلت رويداً رويداً إلى الشَّرق المسيحي. ولاسيَّما إلى الكنيسة البيزنطيَّة. ومن ثمَّ صار من اللاَّزم إعطاء تفسير مقبول للتَّفريق بين الأسرار الكنسيَّة وبين الصَّلوات التَّقديسيَّة فيها، ممَّا فتح باب الاجتهاد لتأويلات وشروحات تبغي وضع حدٍّ يفصل بين ما تقنَّن كسرٍّ كنسي، وبين ما أُدرج تحت مضمون ''صلوات تقديسيَّة''. وإنَّ الكُتُب الطَّقسيَّة البيزنطيَّة نفسها لا تميِّز في نصوص صلواتها بين الأسرار Sacraments وبين الصَّلوات التَّقديسيَّة Sacramentals تمييزاً واضحاً كما بات معروفاً في الكنيسة الغربيَّة[٢٠].

(٤) هل تأسَّست الأسرار بواسطة السيِّد المسيح نفسه؟

كان لمجمع ترنت Trent (١٥٤٥-١٥٦٣م) السَّابق ذكره، تأثيرٌ كبيرٌ، ليس على الكنيسة الغربيَّة فحسب، بل وأيضاً على الكنيسة الشَّرقيَّة، بعد أن تسرَّبت بعض قراراته وتحديداته إلى الشَّرق المسيحي. وكان من أبرزها، هو تلك التَّحديدات المنهجيَّة العقلانيَّة للأسرار الكنسيَّة. فقال: 'إنَّ الأسرار قد تأسَّست بواسطة السيِّد المسيح نفسه'. بل قد حرم كلَّ من يقول بخلاف ذلك. فظهر خلاف بين لاهوتيِّي الكنيسة الغربيَّة أنفسهم بخصوص هذا التَّحديد. وكان جوهر الخلاف، هو أنَّ هناك بعض أسرار مثل الميرون ومسحة المرضى والزَّواج، لا يوجد في الكتاب المقدَّس ما يحدِّد أنَّ السيِّد المسيح هو الذي أسَّسها بنفسه[٢١]. بينما اعتقد لاهوتيُّو كنيسة إنجلترا، أنَّ سرَّي المعموديَّة والإفخارستيَّا فقط دون باقي الخمسة أسرار الأُخرى، هما

20- Davis, J.G., *A Dictionary of Liturgy and Worship*, SCM Press LTD, 1972, p. 78.

21- *ODCC*, (2nd edition), *op. cit.*,p. 1218.

اللَّذان أسَّسهما السيِّد المسيح[٢٢].

وهذا الكلام، يضاد ما صار مستقراً في الشَّرق المسيحي منذ البداية، وهو أنَّ الحياة اللِّيتورجيَّة في الكنيسة، تستمد أصولها من مصدرين أساسيين، لا يقل أحدهما عن الآخر في الأهميَّة، المصدر الأوَّل هو التَّقليد المكتوب، أي التَّقليد الذي وصل إلينا من الكتاب المقدَّس، والمصدر الثَّاني هو التَّقليد الشفهي أي التَّقليد غير المكتوب، أو المعروف في الكنيسة باسم "التَّسليم السِّري". فإن كان المسيح بالنِّسبة للكنيسة هو حجر الزاوية فيها، فإنَّ الكنيسة مبنيَّة أيضاً على أساس الرُّسُل والأنبياء.

فيتحدَّث القدِّيس باسيليوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩م) في كتابه عن الرُّوح القُدُس، عن مكانة وأهميَّة التَّسليم السِّري في الكنيسة، وأنَّه إلى جانب التَّعليم المكتوب أو المعلَن، يشكِّلان معاً دعامة الإيمان الصَّحيح، وإذا رُفض الأوَّل، (أي التَّعليم السِّري) يُشوِّش الثَّاني (أي التَّعليم المكتوب) ويُفقده قوَّته فيقول:

[العقائد والممارسات التي تقبلها الكنيسة وتحفظها، يستند بعضها إلى التَّعليم المكتوب، والبعض الآخر قبلناه سرًّا، وهو تسليم الرُّسُل. وهذان هما دعامة الإيمان الصَّحيح، ولهما نفس القوَّة. وهو ما لا يعترض عليه أحدٌ، لاسيَّما من توفَّرت له خبرة في ممارسات الكنيسة. ونحن لا نستطيع أن نرفض ما استقرَّ من عادات في الكنيسة، بدعوى أنَّ هذه العادات لا تستند إلى بُرهان مكتوب، أو أنَّ قيمتها صغيرة. لأنَّنا إن رفضنا عادات الكنيسة، فسوف نجرح الإنجيل نفسه، بل نحوِّل التَّعليم إلى اسم بلا معنى. والمثال الذي أريد أن أقدِّمه في هذا الشَّأن، هو عن موضوع عام ...

ما هو المصدر المكتوب الذي تعلَّمنا منه أن نرشم بعلامة الصَّليب، أولئك الذين يثقون بربِّنا يسوع المسيح، ويطلبون الخلاص في المعموديَّة؟ ... وتقديس مياه المعموديَّة والميرون وطريقة قبول وتعميد الموعوظين، هل لها مصدر مكتوب؟ أليس مصدر كلّ هذا هو ما لا يُعلن؟ (أي التَّسليم السِّري).

ما هي الكلمات المكتوبة التي علَّمتنا مسحة الميرون؟ وأيضاً ما هو المصدر المكتوب الذي يحدِّد أن تكون غطسات المعموديَّة ثلاث؟ ويمكن أن نسأل عن العادات الأُخرى الخاصة بالمعموديَّة، مثل جحد الشيطان وكلّ ملائكته، ما هو المصدر المكتوب الذي يُعلن لنا هذا؟

أليس كلُّ ذلك من التَّعليم العظيم والسِّري غير المُعلَن. والذي احتفظ به الآباء في سريَّة تامة، لكي لا يعرفه المتشكِّكون والمتطفِّلون فيحفظون بذلك هيبة الأسرار؟ فالذي لا يجوز إعلانه لغير المعمَّدين، هو ما لا نسمح لهم بحضوره، ولا حتى تسجيله مكتوباً ...

الرُّسُل والآباء قد أرسوا دعائم الشَّرائع الكنسيَّة، وحفظوا هيبة الأسرار وكرامتها بالإبقاء عليها سرًّا وعدم إذاعتها، لأنَّ ما يُعلن ويُعرف لدى عامة النَّاس يفقد هيبته، ولا يصبح سرًّا، وهذا هو السَّبب في وجود التَّسليم غير المكتوب الذي يحوي عقائد وممارسات لا تُعلن ولا تُدوَّن حتى لا تصبح من توافه الأمور متى صارت مألوفة للكُل. العقيدة والتَّعليم اللَّذان يتم إذاعتهما، هما شيآن متمايزان: الأولى نحتفظ بها في صمت، والثَّانية يمكن إذاعتها لكلِّ الدُّنيا ...

وسوف أحتاج إلى وقت طويل جدًّا إذا حاولت أن أسرد أسرار الكنيسة غير المكتوبة ... أمَّا عن الاعتراف بإيماننا بالآب والابن والرُّوح القُدُس ... فما هو المصدر المكتوب لهذه العقيدة؟ ...][٢٣].

ويحدِّد القدِّيس باسيليوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩م) أنَّ المعموديَّة والإفخارستيَّا وزيت الميرون، هي من الأمور التي لا يُسمح

٢٢- لقد تبنَّت الكنيسة الأنجليكانيَّة أفكاراً أكثر إيجابيَّة في العصور الحديثة تجاه هذه الأسرار الخمسة الأُخرى.
٢٣- القدِّيس باسيليوس الكبير، الرُّوح القُدُس، مرجع سابق، ٢٧:٦٦،٦٧

لغير المعمَّدين بالنَّظر إليها، أو الاطلاع عليها[٢٤]. ولقد أحصى الذين درسوا مؤلَّفات القدِّيس يوحنَّا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م) خمسين موضعاً منها على الأقل استعمل فيها عبارة متكرِّرة هي:
[سوف يفهم معنى كلامي، المعمَّدون فقط].

وعندما كان القدِّيس غريغوريوس النَّاطق بالإلهيَّات (٣٢٩-٣٨٩) يعظ عن الأسرار، كان يقول للشَّعب:
[لقد تحدَّثتُ كثيراً عن السِّر حسبما هو مسموح لنا أن نتحدَّث علناً وأمام النَّاس، أمَّا باقي الحديث، فسوف تسمعونه في السِّر لكي يبقى هذا الكلام سرًّا خاصاً بكم] (عظة ٤ على المعموديَّة).

ويتحدَّث القدِّيس كيرلُّس الأورشليمي (٣١٥-٣٨٦م) إلى الموعوظين فيقول لهم:
[نحن لا نتحدَّث علناً عن الأسرار أمام الموعوظين، بل نتحدَّث بطريقة غير واضحة لا يعرفها إلاَّ المؤمنين فقط. أمَّا الذين لا يعرفون، فلا تؤذيهم الكلمات التي سمعوها].

ولقد انعكس هذا الأمر على المصادر المسيحيَّة نفسها. أي أنَّ كلَّ ما سجَّله الآباء، كان هو التَّعليم العلني المعروف الذي يخص كلّ الشَّعب، أمَّا التَّعليم السِّري غير المعلن، فقد تسلَّمته الكنيسة بدون تدوين، بل وأبقت عليه غير معروف، حتى أنَّ المؤرِّخ سوزومين (أوائل القرن الخامس)، والذي كان معاصراً للمؤرِّخ سقراط (٣٨٠-٤٥٠م) قد امتنع عن تسجيل كلمات قانون الإيمان، لئلا يقع كتابه عن تاريخ الكنيسة، في حوزة غير المؤمنين (كتاب ١:٢٠)[٢٥].

ويقول القدِّيس كيرلُّس الأورشليمي (٣١٥-٣٨٦م) في مقاله الافتتاحي لطالبي المعموديَّة:
[عندما تتسلَّم تعليماً، إن سألك موعوظ من الخارج قائلاً لك: ماذا يقول المعلِّمون؟ لا تُجبه بشيء. إنَّنا نسلِّمك سرًّا ورجاءً في الحياة المقبلة، فاحفظ السِّر لذاك الذي يهبك المكافأة.

لا يقُل لك أحدٌ ماذا يصيبك لو عرفته أنا أيضاً؟ فإنَّه كالمريض الذي يطلب خمراً، وإذ يأخذه في وقت غير مناسب، يحدث له هذيان، وبهذا يتحقَّق شرَّان: المريض يموت، والطَّبيب يُلام ... إنك كنتَ يوماً موعوظاً، و لم أخبرك بما أُعلنه لك الآن. إنَّك ستختبر كيف أنَّ أمور تعاليمنا عالية، وعندئذ تدرك أنَّ الموعوظين لم يتأهَّلوا بعد لسماعها].

و لم يكن يُسمح للموعوظين أن يبقوا في الكنيسة بعد انتهاء قُدَّاس الكَّلمة. لأنَّ كلَّ من يبق في الكنيسة بعد ذلك، يلزم أن يتناول من الأسرار المقدَّسة. وفي اللِّيتورجيَّة الإثيوبيَّة، ينادي الشمَّاس بعد قُبلة السَّلام قائلاً: ''يا أيها الذين لا يتناولون، اخرجوا''.

وبحسب الطَّقس، وبعد غلق الأبواب، لا تُفتح مرَّة أُخرى إلاَّ بعد انتهاء القُدَّاس والتَّناول من الأسرار المقدَّسة، وتسريح المؤمنين. وهذا نقرأه في قوانين الرُّسُل بحسب الكنيسة القبطيَّة: ''ولتقف الإيبودياكونات عند أبواب النِّساء، ويقف شمامسة على أبواب الرِّجال، لئلا يخرج أحد. ولا يفتحوا الأبواب في وقت القُدَّاس الطَّاهر، ولو كان على الباب مؤمن'' (قانون الرُّسُل ١:٥٢:١٢).

أمَّا الآن، فيدخل المسيحيُّون إلى الكنيسة في أيِّ وقت يشاءون، ويخرجون منها حينما يرغبون، ويتقرَّبون من الأسرار المقدَّسة أو لا يتقرَّبون. فهل بات طقس الكنيسة تاريخاً يُحكى أو تراثاً عفت عليه السُّنون؟ فقوانين الكنيسة تعلِّمنا أنه إن بقى أحدٌ خارج حدود المذبح، فإنه لا ينال من الخُبز الإلهي.

يقول الأب ألكسندر شميمان (+ ١٩٨٣م): ''يذكر القدِّيس غريغوريوس النَّاطق بالإلهيَّات (٣٢٩-٣٨٩م) أنَّ الشمَّاس كان يقول: ''ليخرج كلُّ من لا يريد أن يتناول القُدسات''[٢٦]. عندئذ لم يكن يبقى في الاجتماع الإفخارستي سوى

٢٤- نفس المرجع، فصل ٢٧
٢٥- انظر: الدُّكتور جورج حبيب بباوي، مذكِّرات في المعموديَّة في الأربعة قرون الأولى، ص ٨٥- ٨٩
26- *PG* 77, 233.

المؤمنين، أي المعمَّدين في الكنيسة، فهم مدعوون جميعاً الآن بالصَّلاة المشتركة، إلى الاستعداد للتَّقدمة الإفخارستيَّة.

أمَّا اليَوم فتبقى أبواب الكنيسة مفتوحة طوال إقامة الذَّبيحة الإلهيَّة، فيخرج من يخرج، ويدخل من يدخل في أيِّ وقت. ونسى العلمانيُّون، وحتى الكهنة أيضاً، أنَّ الإفخارستيَّا هي اجتماع مُغلق للكنيسة، وأنَّ الجميع في هذا الاجتماع من كبيرهم إلى صغيرهم مُكرَّس، وأنَّ الجميع يحتفل كلٌّ في مكانه، في العمل اللِّيتورجي الواحد للكنيسة. أي أنَّ الكهنة ليسوا هم وحدهم الذين يخدمون الذَّبيحة، ولا حتى الكهنة مع العلمانيِّين، بل هي الكنيسة التي يؤلِّفونها كلُّهم معاً مجتمعين، والتي يعلنون ملأها بحضورهم. إنَّ الكنيسة هي التي تحتفل"[٢٧].

إن ما سبق ذكره، هو مقدِّمة عامة عن الأسرار. وعلينا الآن أن نتكلم عن بعض أسرار الكنيسة بأكثر توضيح.

٢٧- الأب ألكسندر شميمان، الإفخارستيَّا سرُّ الملكوت، ترجمة سامر عبُّود، منشورات النُّور، ١٩٩٣م، ص ١٢٩